آخرِ فَارس في آخر مدينة

ظل نور الإسلام يشع في سماوات الأندلس بالهدى والحضارة والعلم ثمانية قرون، كان في أربعتها الأولى شديد السطوع والشيوع لأنه كان ينبثق من مصدر متحد، ويشرق في صحو شامل، فلا غيوم كانت تحجب ضوءه، ولا عواصف كانت تبدد سناه. فلما وهنت اليد المصرفة، ووهي السمط الجامع، انتشر الرأي الجميع، وانفرط العقد النظيم، وانقسم ملك عبد الرحمن الناصر إلى دويلات تتنافس في الحكم، وتتخاذل في الشدة، وتتواطأ مع العدو.

ثم انطفأ في قلوب المسلمين نور الله فضلّت الهداة وتعادت الإخوة وتحاربت الجيرة وجف الثرى بين بعض البلاد وبعض، على حين كانت أسبانيا النصرانية تتقارب وتتجاذب حتى اتحدت ممالكها الخمس في مملكة قشتالة. ثم أخذت تغير على أسبانيا المسلمة مستعينة على إخضاعها وابتلاءها بأمثال الجلاوي من البربر، وأشباه نوري السعيد من العرب، حتى لم يبق في أيدي المسلمين منها إلا غرناطة !.

وكان الملك في هذه المدينة الباقية قد استقر في بني الأحمر وانتهى إلى آخرهم الملك أبي عبد الله محمد. وكان هذا الملك مأفون السياسة مغموز الوطنية خوار العزيمة، فلم يكد يعلم أن فرديناند الخامس ملك قشتالة قد مد عينيه إلى غرناطة عروس الأندلس وموضع الحمراء وآخر ما بقى في ملك العرب من الفردوس المفقود حتى أشفق على نفسه وملكه فترك الدفاع وآثر العافية. وأرسل إلى العدو سرًا من يفاوضه في تسليم المملكة على أن يُقطعه بعض الأرض ليحكمها تحت لوائه وفي ظله. وأبرمت المعاهدة في الظلام، وحان موعد التسليم، فعارض فيه جماعة من فرسان غرناطة لا تزال فيهم بقية من نخوة العروبة ونجدة الفتوة.

* * * * *

وكان على رأس هؤلاء الفتية فارس من سلائل الملوك يقال له: موسى ابن أبي الغسان، كان مثلاً للفروسية العربية التي تركت طابعها البارز في الفروسية الغربية، وكان مجمعًا للصفات الجمالية التي جعلته موضع إعجاب الشباب ومهوى قلوب الأوانس.

وكان منقطع القرين في أدب السيف وأدب اللسان، ومغامراته الحربية والغرامية كانت حديث المجالس في أسبانيا النصرانية والإسلامية. ومن العجيب أني أنقل حديث هذا البطل عن المصادر الأوربية، لأن المصادر العربية لا تكاد تفصح عن أمره ! قال ابن أبي الغسان لملكه الهلوع الرخو في لهجة الغضبان الأنوف:

" يا ملك المسلمين قل لملك النصارى: إن العربي لا يقبل الحيف، ما دام يحمل السيف، وإن الأبي الحر يفضل أن يكون له قبر في أنقاض غرناطة، على أن يكون له قصر في رياض أندرش ".

وأندرش هي مقر الإقطاعية التي رضي أبو عبد الله أن يعيش على ريعها في حمى فرديناند وإيزابيلا، فلم يسع أبا عبد الله إلا أن ينزل على حكم السادة والقادة فطوي المعاهدة واتخذ الأهَب للدفاع.

وأصبح الناس ذات يوم فإذا هم يرون في أودية (شنيل) ثمانين ألفًا من جنود قشتالة يقصدون مرج غرناطة ليحاصروها. وكان موسى حبيب الجيش والشعب قد قسم الدفاع عن المدينة بين الرؤساء والقادة، وتولى هو قيادة الفرسان يعاونه محمد بن زائدة ونعيم ابن رضوان. وانقدت نار الحرب بين قشتالة يناصرها أرجون وليون ونافار، وبين غرناطة لا يناصرها إلا البأس والصبر والإيمان.

وكان لفروسية ابن أبي الغسان في وقائعها حملات مظفرة أرهقت قوات العدو وعوقت أمداده وقطعت سبله. ولكن القشتاليين أحكموا الحصار على غرناطة وأهلكوا ما حولها من الزروع، وحالوا بينها وبين المدد من البحر والبر.

وأقبل الشتاء فغطى الحقول والمروج بالثلج فلم يستطيع الفرسان أن يتسللوا إلى الخارج ليجلبوا الميرة والذخيرة. ودام هذا الحصار الشديد سبعة أشهر قل فيها القوت وضاق الوسع وأوشك الصبر أن ينفذ. فتقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك إلى مجلس الحكم وقرر أن الجوع آت لا ريب فيه، وأن الدفاع عناء لا جدوى منه. فابتدره موسى بقوله: " إن نفوس المجاهدين الصابرين لا تعرف اليأس " ثم أمر ففتحت الأبواب وخرج بكتيبته إلى لقاء العدو وجهًا لوجه، وقال لفرسانه: " لم يبق لنا من الأندلس كلها إلا الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الوطن والحرية " ثم حمل

بهم على المحاصرين حملة صادقة فكشفوهم عن المدينة، ولكنهم عادوا فأطبقوا عليها. واستمرت المعركة أيامًا على المد والجزر حتى مس الجنود الضر وساورهم اليأس فارتدوا إلى المدينة حتى لم يبق في المعركة غيره.

وفي مساء ذلك اليوم عقد الملك في بهو الحمراء مجلسًا من الفقهاء والزعماء والقادة قلبوا فيه الأمر على وجوهه المختلفة ثم اجتمع رأيهم عل التسليم.

وهنالك نهض موسى وحده يفند الرأي ويعارض الاستسلام ويحاول أن يبعث في النفوس القانطة روح الرجاء. قال فيما قال:

" يا قوم إن وسائلنا الدفاعية لم تنفد بعد، فما زلنا نملك الوسيلة التي تبطل المستحيل وتصنع المعجزات وهي اليأس ! فلنحي في نفوس الشعب روح التضحية، ولنضع في أيديه السلام، ولنقاتل نحن وهو حتى نفنى جميعا. وإذا لم يجد كل منا القبر الذي يواريه، فإنه لن يعدم السماء التي تغطيه. ولخير لنا أن نحصى فيمن جاهدوا وقتلوا، ومن أن نحصى فيمن سلَّموا وسلِموا.. ".

ولكن بلاغة موسى لم تصادف في هذه المرة هوى في النفوس فأعرضوا بأسماعهم عنها. وأجال الملك التعس نظره في الجلوس يجد على الوجوه إلا السهوم والوجوم، فصاح بأعلى صوته: الله أكبر ! فلتكن إرادة الله ! فردد القوم ما قال وبكوا، وإلا موسى فقد ظل صامتًا لا يتكلم، شاخصًا لا يطرف.

* * * * *

فلما رأى بعض الوزراء يخرجون ليفاوضوا العدو في تنفيذ المعاهدة ثار الدم في وجهه وقال: " يا قوم لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن الأسبان إذا عاهدوكم يفون. إن الموت أقل ما تخشون. وسترون إذا سلمتم أن مدينتنا تخرب وأموالنا تنهب ونساءنا تستباح ومساجدنا تدنس ونواصينا تذل وأجسادنا تساط ودماءنا تراق وبقيتنا تنفى. سترون كل ذلك وأفظع منه يا من تضنون بنفوسكم على الموت الكريم، أما أنا فوالله لن أراه ".

ثم نهض مسرعًا من مكانة فاجتاز (بهو الأسُود) من قصر الحمراء ومضى لا يلوي على أحد حتى دخل داره فلبس سلاحه وركب جواده ثم خرج من باب (البيرة) إلى ظاهر غرناطة.

وهنا يقول المؤرخ الأسباني القس انطونيو أجابيدا: في عشية ذلك اليوم الذي خرج فيه بطل الأندلس على هذه الحال كانت كوكبة من الفرسان الأسبان يسيرون على نهر شنيل فأبصروا في ضياء الغروب الشاحب فارسًا مسلمًا قد غاص هو وفرسه في الحديد، فاستوقفوه ليعرفوه، فعمد إلى كبيرهم فانتزعه من سرجه وضرب به الأرض. ثم حمل عليهم حملة من يطلب الموت، يهجم ولا يدافع، ويضرب ولا يتقي، حتى قتل أكثرهم.

ثم تناوشته السيوف من كل جهة فجرح، وأصابت الرماح فرسه فصرع. فلما خر مضرجًا بدمه ترجل الفرسان ليحيوه أو ليأسروه، فجثا على ركبتيه: واستل خنجره وأخذ يثخن فيهم حتى خارت قواه من كثرة ما نزف من دمه وخشي أن يقع في أسر عدوه فارتد إلى الوراء وقذف بنفسه في النهر فغاص من ثقل دروعه إلى قاعه.

فهل تجد فرقا في غير الزمن والعدد بين أبطال بورسعيد وبطل غرناطة؟ إن للوراثة سرًا يكمن في الدماء، وإن للجنس عبقرية تنتقل من الآباء إلى الأبناء.